

أ.د. إدريس المخرشاف

لا مشاحة في أن الأبحاث العلمية المعاصرة، تعد من أبجديات العلاقة التي تربط الإنسان بالكون الفسيح الذي ينتمي إليه، ويعد العلم ثورة عقلانية مستمرة تمس كل عناصر الوجود، انطلاقاً من العالم اللامتناهي في الصغر، مصداقاً لقول رب العالمين في محكم تنزيله (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ) (يونس 61). إلى العالم اللامتناهي في الكبر (مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْمَجَرَاتِ وَمَجْمُوعَةِ الْمَجَرَاتِ (Galaxies)، مصداقاً لقول رب العالمين: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

(ق 6)

ولكي يكون للعلم دور طلائعي في حياة الإنسان - لابد أن تترجم أعماله إلى حقائق ملموسة، تتغلغل في بنيان المجتمع، وتهذب فعاليته وتصبح نفعاً مؤثراً في مناهج الحياة، لأن ميراث الأمم من المعارف العلمية يشكل المرافد الأساسي للتخطيطات المستقبلية.

وعندما نزلت الآية الكريمة الأولى (اقْرَأْ) على معلم البشرية سيدنا محمد - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - أعطت للإنسان نفساً جديداً، ومعنى راقياً لمفهوم الإنسان، فكان السمع والبصر والعقل لقول رب العالمين: (تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ الْمُسْمَعِ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) (الإسراء 36).

من هنا وجب القول: إن العلوم وإن كانت ذابغة من مصدر واحد فإن لها موجهتين اثنتين: أولاهما: المتجهة المادية الصرفية، والتي تعتمد على المشاهدة ثم الاختبار، وبعدها دراسة النتائج وإعداد الاختبار بشتى المناهج الممكنة، وذلك من أجل بناء نظريات وآراء جديدة، وهذه علماءها، أمثال بطليموس وكوبرنيك ودارون وغيرهم.

ثانيتها: منهجية تعتمد على إخضاع المتجهة الأولى لقانون كوني يأخذ ويستمد قوته كلها من تعاليم خالق هذا الكون، فيخشى العالم ربه، كما يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر - 28)، وينتج عن ذلك الراحة النفسية، فيستقيم في أعماله ويؤمن في قرارة نفسه بالمسؤولية الملقة على عاتقه، الأمر الذي يدفعه إلى القيام ببحث دقيق لكل لوحات الطريق المؤدية إلى الحقيقة، والوقوف عند كل ظاهرة أو علاقة ترشده إلى معالم الطريق.

فالباحث المؤمن مطالب اليوم وأكثر من أي وقت مضى، بوضع استراتيجيات عقلانية إيمانية لجملة المصطلحات المعرفية، تكون شفافة الطرح، واضحة المعالم، وذات تطبيقات إنسانية داخل النسق المعرفي وسيروية الأحداث. فإذا كان مفتاح المعرفة هو التدبر والتأمل فيما خلق الله، والتفكير في النتائج من أجل معرفة الله سبحانه وعبادته، فإننا بحاجة في وقتنا إلى شباب واع بقضية أمته الإسلامية لتقديم الحل الجذري للمشكلات التي يتخبط فيها إنسان القرن الحادي والعشرين (استئجار الأرحام، الموت الرحيم، القنابل البيولوجية وأسلحة الدمار الشامل، التلوث البيئي والأخلاقي والاجتماعي...).

إننا نملك في دولنا الإسلامية - والحمد لله - مقومات الإنتاج المعرفي والتقني، كما نملك موارد مادية هائلة، وقوى بشرية شابة ومتفتحة، ومؤسسات علمية متعددة الاختصاصات، لكننا نفتقد في غالب الأحيان - مع الأسف - معرفة الكيفية التي يمكننا بها استثمار أنعم الله بالشكل العلمي الرصين.

لذلك لابد لنا من توليد رابطة تتحكم في دوايب الاتصالات بين عناصر المخلوقات الكونية: الإنسان بالإنسان، والإنسان بالمخلوقات الكونية، نكون بذلك قد ساهمنا في توليد محرك التقنية المادية والتقنية الأخلاقية الإيمانية، الأمر الذي سيؤدي إلى خلق إنسان عصره، يحس بفضائه، وعلى دراسة - ولو نسبية - بحركة عناصر هذا الكون، يستطيع تحمل الأمانة التي أوكلها له رب العزة، ويكون في مستوى المناجاة مع خالق هذا الكون.